قصة آل عمران

ما زال حديثنا عن الإصلاح ونسعى دائماً لنهضة في مجتمعنا في سبيل ذلك الإصلاح.

وتكلمنا كثيراً عن الأسرة، إلا أننا ركزنا في كلامنا عن علاقة الآباء بالأبناء كيف تكون علاقة حُب وود، وعن كيفية التواصل والتقرب من بعضهما بعض، حتى لا تكون العائلة مفككة، لكن كان هذا من زاوية معينة تكلمنا فيها عن علاقة الأفراد داخل الأسرة.

أما الآن فسنتكلم عن زاوية مختلفة تماماً وهي دور الأسرة في الإصلاح.

دور الأسرة في الإصلاح

نحن كأسرة ما دورنا في الإصلاح؟ والأسرة كوحدة ما دورها في المجتمع؟ أو في التنمية؟

هل سمعتم عن عائلة جلست وسألت: ما دورنا في المجتمع؟ في الإسلام؟ ماذا نقدم لبلدنا؟ كيف نصلح؟ ما هو دورنا في الإصلاح؟

obeikandl.com

هل دور الأم والأب محصور في ذهاب الأولاد للمدرسة أو الجامعة، هما يعيشان حياتهما الروتينية كالذهاب إلى العمل وتأمين المال، والطعام والشراب؟ ماذا يحصل بين الأب والأم بعد مرور خمس سنوات أو عشر سنوات على زواجهما؟ هل تصاب علاقتهما بالفتور، كيف نجدد العلاقة وتصبح كما كانت عليه أيام الخطوبة؟

قم بدورٍ مشتركٍ مع زوجتك، كيف؟ اتفقوا على مشروع تقومون به معاً.

فالحاصل اليوم، أن الرجل والمرأة يسيران باتجاه معاكس، والفجوة تتسع وتتسع، ابدأوا بمشروع يجمعكم سوياً.

تساءلوا: ما هو دورنا في هذه الحياة؟ ما دورنا في هذا الشارع؟ ما دورنا مع الجيران؟ لكي تتوثق العلاقات من جديد وتصبح أفضل بكثير مما كانت عليه سابقاً. ليس فقط من أجل الله تعالى، ليس فقط من أجل النهضة، بل أيضاً من أجل سعادتنا العائلية.

أعرف شخصاً عمره ستون سنة، علاقته مع زوجته غير عادية، يعمل هو وزوجته كل يوم اثنين في تحضير الطعام ودعوة سكان المبنى حيث يسكنان للاجتماع بهم والتحدث في مشاكلهم وحلها.

تعالوا نتحدث عن عائلة كان هذا عملها أيضاً، عائلة «آل عمران» والدا مريم عليها السلام وجدّ وجدّة سيدنا عيسى عليه السلام.

ميزة هذه العائلة:

هذه العائلة عائلة ربانية، نذرت نفسها لله وللإصلاح، وقالت: سنعيش لربنا فقط، فجعل الله محاور التاريخ كلها مرتبطة بهذه العائلة.

وانظر ماذا قال الله فيهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [آل عمران: 33].

فآدم ونوح كانا نموذجين لأفراد أصلحوا في التاريخ، آل إبراهيم وآل عمران نموذجان لعائلات أصلحوا في التاريخ، وهذه الآية وردت في سورة اسمها سورة: «آل عمران» انظر إلى أهميّة الأسرة في القرآن سورة كاملة سميت باسم عائلة!، وسورة «آل عمران» هذه تتكلم عن غزوة أُحُد، وعن الانتصار والمسلمين؛ كأنه يلفت نظرنا أن بداية الانتصار من الأسرة.

تسميتها بآل عمران

ولماذا سميت بآل عمران؟ لأنها نموذجاً في التاريخ... عائلة ضحّت من أجل الله تبارك وتعالى، فمنهم من قُتِل ومنهم من مات ومنهم من رُفِع، عائلة غير عادية في التاريخ.

عائلة عاشت من أجل الله، فأعطى الله اسمها لثاني سورة في القرآن، المفروض أن الذي يفتخر بهذه القضية هم إخواننا من المسيحيين، لكن انظر إلى نظرة الإسلام تجاه هذا الموضوع، فنحن نقول لإخواننا المسيحيين: أنتم شركاء لنا في إنشاء هذه النهضة في أسرتكم.

نريد أن نشترك في بناء نهضة بلادنا، فبلادنا هذه مشتركة بيننا جميعاً.

جذورها

ولنعود إلى جذور هذه العائلة: الجدّ والجدة، نلاحظ أنه لم يذكر اسمهما لماذا يا ترى؟ لأن المهم ليس الأشخاص ذاتهم وإنما المغزى والمعنى العام.

إذن لدينا هنا عمران وزوجته اللذيْن أنجبا بنتاً واحدة، فكبرت البنت ولم ينجبا غيرها على أغلب الأقوال. فمن هي هذه البنت؟ إنها ابنة عمران، ولم يكن حتى ذلك الحين أحدٌ منهم نبياً أو رسولاً، ولكن كلهم من نسل داود عليه السلام، يتبعون المنهج الصحيح، وإيمانهم هو الإيمان الصحيح.

فهذه البنت عندما كبرت تزوّجت من زكريا الذي أصبح نبياً، ولم ينجبا أطفالاً لمدة طويلة، حتى رُزِقا بمولود في آخر حياتهم وسمّوه: يحيى وهو نبيّ أيضاً.

والجدة أنجبت في الآخر أيضاً: بنتاً أخرى أسمتها: مريم، وحصل لمريم معجزة كبيرة في تاريخ البشرية، ألا وهي إرادة الله أن تنجب عيسى عليه السلام من غير أب.

فانظر إلى شجرة العائلة، نسل داود، آل عمران، زوجته، تفرع عنهم امرأتين، الأولى تزوجت زكريا وأنجبت يحيى، والثانية أنجبت عيسى، وهي مريم عليهم السلام.

وبالتالي يكون سيدنا يحيى ابن خالة سيدنا عيسى، ويكون زكريا (صهر) أي: زوج أخت السيدة مريم، وزوج خالة سيدنا عيسى، وعمران لديه اثنين من الأحفاد: يحيى وعيسى.

الوضع التاريخي

تعالوا نبحث في الحقبة التاريخية الذي كانوا يعيشونها في ذلك الوقت، والبلد الذي كانوا يعيشون فيه ما شكله؟ كان الرومان يسيطرون على الأرض، وهم وثنيون لا يدينون بأي دين سماوي، منهجهم في الحياة: فساد وظلم شديدين. والعائلة التي تكلمنا عنها- أي: عائلة عمران - كانت تعيش في فلسطين، وكانت بيت المقدس تحت سيطرة الرومان، وهذه العائلة وغيرها من العائلات من مؤمني بني إسرائيل كلهم مضطهدون، وبنو إسرائيل قد ابتعدوا جداً عن نهج داود وسليمان عليهما السلام، وغرقوا في المادية، مما يعني أنهم كانوا - أي: هؤلاء العائلات - يعيشون في ظل وضع مشابه لوضعنا اليوم؟ أليس كذلك؟ ولكن كيف كانت تعيش هذه العائلة؟

كانت تعيش في ظل الكثير من المشاكل: فهي مؤمنة بما جاء به موسى ولكنها محاطة بقوم منشق فيما بينهم تحيط بهم المادية الشديدة، والخلافات المذهبية من كل جانب، يفرحون بتقليد الرومان في كل صغيرة وكبيرة وهذه العائلة تعرف الحق وتراقب كل ما يجري حولها.

ولكنهم قد يعجزون عن بناء النهضة والإصلاح، فلديهم مشكلة التقدم في السن، فعمران وزوجته أصبحا كبيرين جداً لم ينجبا غير هذه الابنة، التي تزوجت زكريا وكبرت بدورها أيضاً،

وزوجها أصبح عجوزاً ولم يرزق بأولاد فناجى ربه قائلًا: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: 4].

وبنو إسرائيل غرقى في المادية واللهو والمعاصي والسهر في الليل، يظلمهم الرومان الذين يحتلون بيت المقدس... كل هذا الظلام والوضع الصعب للبلاد هل من السهل على رجل عجوز قد وهن العظم منه أن ينهض بالأمة؟!

ما هو الحل؟

خرجت من هذه العائلة المرأة الكبيرة، زوجة عمران، واسمها غير مذكور بل وغير معروف أيضاً، أتعرفون لماذا؟ لأن الاسم غير مهم في تقييم عمل الإنسان، تذكروها جيّداً؛ لأنها امرأة عظيمة في التاريخ، استطاعت رغم صعوبة الوضع التي كانت تعيش فيه أن تدرك أن الحلّ في الجيل الجديد، شباب يأتي وينهض بالأمة؛ فليس هناك إصلاح بدون شباب.

فماذا فعلت؟ بدأت هذه المرأة بالدعاء، يا رب، ارزقني ولداً كي أربيه تربية صالحة، وأنا أعدك بأن يصلح كل ما هو سيىء في هذا الزمان، وكانت صادقة تمام الصدق في دعوتها، هل عرفتم لماذا سميت السورة بـ«آل عمران»؟ لأن هذه الأسرة كانت نموذجاً للأسرة الصالحة.

المفاجأة:

المفاجأة، معجزة غير طبيعية، تحمل المرأة ورغم كونها

عجوزاً، وتحمل قبل ابنتها فتخيل هذا الموقف! تحمل بعد أن أصبح صهرها (زوج ابنتها) مشتعل الرأس شيباً!

ويبدأ القرآن يروي لنا حكايتها وهي تتحدث إلى ربها: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا﴾ [آل عمران: 35]، ولننظر إلى كلمة «نذرت»، لقد نذرت امرأة عمران ما في بطنها خالصاً لله ولخدمة بيته، في حين أن الناس كلهم ينذرون، للدنيا.

لكن ما حصل من هذه المرأة أنّها نذرت شيئاً للآخرة، نذرت شيئاً في سبيل الإصلاح، يا رب، لو مكنتني من الإصلاح سوف أفعل كذا وكذا.

وقد قالت: محرراً، أي: محرر من كل شهوة، وهي آتية من الحرية؛ لأن قمة الحرية أن تكون عبداً لله.

وانت ان لم تكن عبداً لله، حتماً ستكون عبداً لاي شيء آخر، فمرة تكون عبداً لشهوة المال، ومرة عبداً لشهوة الجنس، ومرة عبداً للسلطة، ومرة عبداً للكرسي، واخرى للمنصب... كن عبداً لله واترك ما دونه تسعد.

ولاحظ أن المرأة عندما تتبنّى فكرة وتنوي تنفيذها تصبح محور حياتها وتبذل قصارى جهدها في التخطيط لها، فهي رغم العاطفة الجيّاشة التي أوجدها الله فيها قادرة على تحمّل أصعب المسؤوليات، وزوجة عمران هي بطلة القصة ومحورها الأساسي دون عمران فنحن لا نعرف عنه شيئاً.

فقولوا يا نساء الدنيا: أنا لن أقلد غيري من النساء فانهب حتى أورث المال والجاه، بل أريد ولداً صالحاً مصلحاً في الكون حتى لو مات في سبيلك يا رب.

قولوا يا شباب: سنتعلم، سندرس كمبيوتر، سنفهم كيف تسير الحياة، سنأتي بالأموال من أجل أن نصلح؛ لأن الإصلاح يحتاج إلى أدوات.

سيدنا داود صنع أدوات حربية، سيدنا يوسف وضع خططاً اقتصادية، سيدنا نوح صنع سفينة جديدة ليس لها مثيل في عصرها، فالموضوع ليس عبادة فقط، بل الموضوع صناعة وإصلاح أيضاً، نعم... سأتعبد وأتذلل من أجل الإصلاح.

وماذا تكمل زوجة عمران؟ ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ﴾ [آل عمران: 35]، انظر إلى الأدب في الدعاء.

قل: نذرت هذا الولد لله، وسيكون لك في كل دقيقة حسنة في تربيته، لكن تقول: سآتيه بشيخ يعلمه القرآن وأنت تتشاجر دائماً مع زوجتك، وتغيب حتى نصف الليل خارج البيت وتضيع أوقاتك بأمور تافهة، وتضيع عليك صلاة الفجر... وفي الآخر تنتظر من الولد أن يكون نذراً لله، قائماً مطيعاً! صدقني أنت بذلك تطلب المستحيل. والآية التي قبلها ماذا تقول: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [آل عمران: 34].

فلا تضحك على نفسك أرجوك، تشرب السجائر وتقول: أريد أن يكون ابني مطيعاً... كيف؟

زوجة عمران كانت صادقة، وزوجها ساعدها أيضاً؛ لأنها أسرة متكاملة ومتماسكة مع بعضها البعض.

يا شباب، ابحثوا عن شريك يعينكم على طاعة الله وعلى بناء مشروع لأجل الله تعالى فقط، حتى لو تأخر زواجكم لكن اختاروا الذي يصلح معكم.

نريد زيجات تصلح المسلمين، فتخيل لو أن عائلة كعائلة آل عمران تتبنى عملية اصلاح الأوضاع اليوم! هل هذا ممكن؟ نعم ولمَ لا؟

وانظر معي لهذه المفاجأة، هي طلبت أن يكون مولودها ذكراً، ليكون في كبره رجلًا قوياً صنديداً يحمل أعباء الأمة والمجتمع على كتفه، وقد ظنت أن هذه المهمة لا تكون لامرأة فماذا حصل؟

وضعت أنثى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ [آل عمران: 36]، فتخيل دموعها في هذه اللحظة، وبدأت تفكر يا رب، إنك لم تستجب لي! وعلى عكس كلّ الناس لم تفرح؛ لأن الأُمنية ليس ذات الولد، فهي تريد أن تصلح وتبني، والفتاة ـ بنظرها ـ لا تصلح لهذه المهمة لهذا قالت: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾، لكنها لم تيأس، بل أكملت بحدة: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾ [آل عمران: 36]، فإذا لم تنفع البنت يأتي بعدها جيل يصلح ويبني.

وانظر لكلمة: أعيذها بك من الشيطان الرجيم.

يقول النبيّ ﷺ: **«ما من مولود يولد إلا مسه الشيطان، فيبدأ حياته ببكاء وصراخ إلا مريم وعيسى»**[1].

لماذا؟ ببركة دعاء الجدة زوجة عمران.

قال تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: 37]، فأين هذا القبول؟

يريد ربنا أن يعلّمها ويعلمنا أن نصرة الإسلام والمسلمين ليست بالذكورة فقط، فمريم هذه ستكون رمز العفة ورمز الشرف ومضرب المثل في التاريخ.

فمن قال الإصلاح للرجال فقط؟

من أجل هذه النظرة الخاطئة جاء القرآن ليدعم الفكرة التي تقول: إن الرجل والمرأة سواء على أساس التقوى.

فيا زوجة عمران أنت تمنيت أن يكون لك من ضلعك ولد يحمل أعباء الأمة على كتفه، فسنعطيك بدل الواحد اثنين، حفيدين، هما: عيسى ويحيى، وهذان سيقودان الإصلاح في الأرض، كأن المعنى: أيتها المرأة الصالحة، إن دَعْوتُك لن تذهب هدراً.

فالله عنده سنة التدرج، وبنو إسرائيل لا يزالون غير مؤهلين لتقبل دين جديد وأفكار جديدة تنقذهم مما هم فيه، فزمن السّيدة

(1) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (الحديث: 2/ 274).

مريم لا يصلح للبناء والإصلاح، لكن في زمن عيسى - ابنها - سيكون هذا الدور مؤهلًا ومهيأً.

هي تمنت من الله أن يصلح بني إسرائيل فستأتي مريم ومعها عيسى ليصبحان نموذجاً في هذا التاريخ كله وإلى يوم القيامة... أرأيتم نية المرأة المؤمنة؟ أرأيتم النية الصادقة القوية ماذا تفعل؟

فلا تيأسوا من الدعاء، واعرفوا أن الله تبارك وتعالى لا يضيع دعوة عبدٍ أبداً.

الناس التي تتذلل في الدعاء إلى الله لا يمكن أن تذهب دعوتها سدًى. ستَرَون خيراً كثيراً مضاعفاً إن شاء الله، ممكن ليس في جيلنا، بل في الجيل الذي بعدنا، ولمَ لا؟ ممكن في جيل أحفادنا، ولكن لنبدأ نحن في الإصلاح من الآن.

والحوار والمناجاة شيء جميل وهو غير الدعاء؟ كأن تقول له: يا رب، هل أنت راض عني؟ يا رب، أتغفر لي؟ يا رب، يا رب. ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ﴾ ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾، ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا﴾، أرأيت كيفية التذلل في الدعاء إلى الله.

وكبرت مريم وهي عابدة مستغرقة في العبادة، فقد تربّت أفضل تربية، ومعنى اسمها: العابدة، الخادمة لبيت المقدس ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ [آل عمران: 37]، وسمي المحراب كذلك؛ لأنها تحارب فيه الشيطان بعبادتها. وكان كلّما

دخل عليها محرابها وجد عندها فاكهة وهو الوحيد المتكفّل بطعامها وشرابها، فيتعجب من هذا الأمر ويسألها ﴿يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران: 37]، فقال زكريا في نفسه: وأنا أريد أن أُرزق على كِبَر، كما رزقت أم مريم بها على كبر، ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾﴾ [آل عمران: 38]، والآية أعربت عن مراد سيدنا زكريا بالولد، ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ﴾ [مريم: 6]، أي: يرث النبوة، وبدأ يدعو ويدعو حتى حصلت المعجزة الثالثة، أن رُزق بيحيى.

وكأن كل تلك المعجزات كانت تمهيداً لمعجزة عيسى عليه السلام، كي يتقبلها الناس، ، فتكون العائلة: عمران وزوجته، زكريا وزوجته، وحفيدين نبيين: عيسى ويحيى عليهما السلام، كما الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة.

وكأن الله يقول لهم: أنتم نذرتم أنفسكم لي، إذن لا بد وأن تضحوا.

مِحَنهُم وابتلاءاتهم

وتبدأ التضحية من عند مريم، ويأتيها المخاض، وتقول: ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ﴿٢٣﴾﴾ [مريم: 23]، من شدة الألم. ويُذبح يحيى ويؤخذ رأسه هدية لملك الرومان، إذ كان مهراً لامرأة لعوب، قالت للملك: إن كنت تريد الزواج بي، أحضر لي رأس يحيى.

قال النبيّ ﷺ: «**صعدت إلى السماء فإذا أنا في السماء الثانية، وجدت ابنَي الخالة عيسى ويحيى**»[1]، فيا للحظ العظيم لهذه العائلة ويا هنيئاً لها، يذكر اسمها في القرآن إلى يوم القيامة، وأحفادها أنبياء من ورثة أنبياء، ومخلدون في الجنة.

ويُقتل زكريا، كيف؟ يُنشر بالمناشير فيُغرق رأسه حتى يسقط نصفين. ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: 112]، زكريا ويحيى، ويُهدد عيسى ويُرفع، وتُتهم مريم في عفتها، انظر لهذه الابتلاءات؟ أرأيت مثلها؟ لكن انظر أيضاً لصبر هذه العائلة التي صدقت مع الله.

مات زكريا ويحيى، ورُفِع عيسى، وبعدها بثلاثمائة عام يدخل الرومان في المسيحية.

وآخر كلمات عيسى عليه السلام قبل أن يُرفع: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: 6]، إذن كان دور هذه العائلة في الإصلاح مستمراً حتى آخر الزمان!

ألا تعلم أن عيسى عليه السلام سينزل في آخر الزمان؟ نعم، وسيصلي في المسجد الأقصى خلف إمام من المسلمين، فيقال: الصلاة، قم يا روح الله، فيقول: لا يا إمام المسلمين، أنت إمامهم أنت تصلي بهم، ويحكم بشريعة محمد ﷺ في الأرض.

هذا كله من خير المرأة التي دعت بإخلاص: ﴿إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ﴾، ويكون الحفيد هو المصلح، والمبشر

(1) أخرجه مسلم في (الحديث: 409).

بسيد الخلق أجمعين إلى يوم القيامة، يا أُسَرَنَا، يجب أن يكون لكم دورٌ في الإصلاح، فأنا أقترح عليكم الآن أن يجلس الأب والأم مع الأولاد وتقترحون فكرة مشروع في سبيل الإصلاح في الأرض، وأن تقلدوا هذه العائلة بإخلاص والله سميع عليم، فإذا لم يكن من أجل الإصلاح فمن أجل أن يرجع الحب بينكم، ويعود الدفء بدل الفتور الذي أصبح في معظم العائلات.

فكروا بخطط تساهم في تنمية بلدكم، تعاملوا مع جيرانكم بأمانة، ابحثوا عن الخير، وعن المشاريع الخيرية، افعلوا أي شيء، لكن أصلحوا أرحوكم تحركوا... أرحوكم.